التعريف بكتاب (الوضعية والنسبوية لمؤلفه لاري لودان)

ترجمة أ.د. فاطمة اسماعيل

لقد صدرت أخيرًا ،بعد طول انتظار!!، الترجمة العربية لكتاب فيلسوف العلم المعاصر لاري لودان Larry Laudan، وهو بعنوان: Beyond Positivism and Relativism: Theory, Method and Evidence. صدر عن المركز القومي للترجمة، العدد: ٣١٢٥، ط أولى ٢٠٢١، لكنه لم ير النور إلا في ٢٠٢٢!!

يعد لاري لودان[١] من أبرز فلاسفة العلم المعاصرين، درس على يد العديد من الفلاسفة المبزين، وكان زميلاً للعديد منهم. هؤلاء الفلاسفة الذين أسهموا إسهامات كبيرة في تشكيل تاريخ العلم وفلسفة العلم المعاصرة؛ أمثال:"سي. جي. همبل C. G. Hemple"، "توماس كون T. S. Kuhn"، "جيرد بوخدال Gerd Buchdahl"، "باول فايرآبند Paul Feyerabend"، "كارل بوبر Karl Popper"، "إمري لاكاتوش Imre Lakatos" و "أدولف جرنباوم Adolf Grunbaum" ، فقد تركوا جميعا بصماتهم على لاري لودان، كما يعلن ذلك صراحة[٢].

غير أنه مع اعترافه بفضل من درس على أيديهم، ومن كانوا له زملاء من فلاسفة العلم المعاصرين؛ إلا أن ذلك لم يمنعه من انتقاد العديد من أفكارهم ، فذلك في نظره اختلاف صحي ويُعد أعمق دليل على إعجابه الدائم بأفكارهم. وفي الوقت نفسه،يعبر عن أصالة أفكاره التي ترجع إلى

---

١ لاري لودان من أبرز فلاسفة العلم المعاصرين، ولد لودان في مدينة أوستنِ Austin بولاية تكساس Texas عام ١٩٤١، وحصل على بكالوريوس في الفيزياء من جامعة كانساسKansas عام ١٩٦٢، وماجستير في الفلسفة من جامعة برنستون Princeton1964 ، وحصل على زمالة كلية تشرشل Churchill جامعة كمبريدج Cambridge 1964-1965، ودكتوراة الفلسفة من جامعة بريستون ١٩٦٥، شغل وظيفة مدرس في كلية تشرشل بجامعة كمبريدج ١٩٦٤-١٩٦٥، ثم محاضراً في فلسفة الفيزياء في الكلية الجامعة بجامعة لندن ١٩٦٥-١٩٦٩، وشغل العديد من الوظائف الأكاديمية العلمية و الإدارية في جامعة بتسبرج Pittsburgh وجامعة هاواي Hawaii، وكذلك عمل بالعديد من الأنشطة المهنية كرئاسة تحرير بعض المجلات العلمية، كما حاضر في العديد من الجامعات، ويشغل حاليا درجة أستاذ فخري في معهد البحوث الفلسفية في الجامعة الوطنية المستقلة بالمكسيك منذ عام ٢٠٠٠.

وله العديد من المؤلفات في فلسفة العلم، كما له العديد من البحوث المنشورة الخاصة بمجال فلسفة العلم وبصفة خاصة مناهج البحث العلمي، وأهم مؤلفاته من الكتب:

"التقدم ومشكلاته، نحو نظرية عن النمو العلمي"١٩٧٧، و "العلم والفرضية" ١٩٨١، و "العلم و القيم " ١٩٨٤، و "العلم والنسبوية" ١٩٩٠، و"تجاوز الوضعية و النسبوية" ١٩٩٦، وقد اهتم بفلسفة القانون في مؤلف له صدر بعنوان"الحقيقة و الخطأ، والقانون الجنائي، مقال في الإبستومولوجيا القانونية، عام ٢٠٠٦. وقد تُرجمت العديد من كتبه إلى: الألمانية، والفرنسية، والإيطالية، والأسبانية، و اليابانية، و الصينية، و الروسية، وأخيرا إلى العربية، لقد قمت بترجمة كتابه التقدم ومشكلاته صدر عن المجلس القومي للترجمة ٢٠١٦، وكتاب العلم و الفرضية صدر عن المجلس القومي للترجمة ٢٠١٨، وهذا الكتاب الذي بين أيدينا (تجاوز الوضعية و النسبوية) أيضا.

٢ راجع تصدير كتاب التقدم ومشكلاته، نحو نظرية عن النمو العلمي، ترجمة فاطمة إسماعيل، الناشر المركز القومي للترجمة، العدد(٢٤١١)،٢٠١٦.

الاستبصارات الموجودة في كتابات أساتذته الذين تأثر بهم، كما تعود أيضاً ، إلى الالتباسات التي تحفل بها هذه الكتابات[٣]. وهو بذلك إذ يؤكد على مبدأ التواصل ثم التجاوز؛ وأن مسيرة الفكر دائماً تسير من النقد إلى الإبداع.

إن لودان مثله مثل أستاذه توماس كون ، بدأ دراسته المتخصصة في علم الفيزياء، ثم تحول إلى الفلسفة في مرحلة الدكتوراة، وشغف بتاريخ العلوم، وبوجه خاص تاريخ نظريات المنهج العلمي أو تاريخ الميثودولوجيا العلمية، وهو واسع الاطلاع و القراءة في تاريخ العلوم و الميثودولوجيا بشكل مذهل، ويظهر ذلك في المراحل الأولى من تفكيره الفلسفي، بصفة خاصة في دراسته الببلوجرافية عن تاريخ نظريات المنهج العلمي، التي جاءت بعنوان : "نظريات المنهج العلمي من أفلاطون حتى ماخ: دراسة ببليوجرافية"، نشرها ١٩٦٧ في مجلة تاريخ العلم [٤]، وأيضا في كتابه: "العلم و الفرضية مقالات تاريخية في الميثودولوجيا العلمية"[٥]، يحتوي على أربعة عشرة مقال، قام لودان بكتابتها في الفترة ما بين ١٩٦٥ و ١٩٨١ ، تناولت شخصيات تاريخية مختلفة، وفترات زمنية متنوعة، وجميع هذه المقالات تهتم بتاريخ الميثودولوجيا العلمية. وأهم ما فيها هو طريقته النقدية الواضحة تماماً، حيث وجه انتقاداته للعديد من الذين كتبوا عن تاريخ العلم وفلسفة العلم وعن العلاقة بين العلم وتاريخه وفلسفته، كما سنبين بعد قليل في الدراسة.

لم يقتصر لودان في مقالاته على الإحاطة بما كتبته أقلام مفكري وفلاسفة الغرب ؛ بل أشار إلى إسهامات العرب الأوائل أمثال ابن الهيثم وابن سينا وابن رشد، وإلى جهود العرب المحدثين مثل جهود الأستاذ الدكتور عبد الحميد صبره الذي أوضح تأثير نظريات الضوء لابن الهيثم على الفكر الأوربي، وقد ذكر لودان ذلك في معرض تصحيحه لرؤية هاكينج عن مفهوم الدليل، حين رأى الأخير أن مفهوم الدليل، والاستقراء عموما لم يُعرف إلا في القرن السابع عشر[٦].

لقد فاق لودان أستاذه توماس كون، بل وفلاسفة العلم المعاصرين، في اهتمامه الشديد بتاريخ نظريات المنهج العلمي، إن من يقرأ مؤلفاته يجد معظمها-إن لم يكن جلها- تتحدث عن نظرية الميثودولوجيا بأبعادها التاريخية، والأنطولوجية، والإبستمولوجية، والأكسيولوجية.

---

٣ المصدر السابق، التصدير، ص٩.

4 'Theories of Scientific Method from Plato To Mach: A Bibliographical Review, History of Science 7, 1-63

٥ ترجمة ودراسة: فاطمة إسماعيل، مراجعة: مصطفى لبيب، الناشر/ المركز القومي للترجمة، العدد(٢٧٨٥)، ٢٠١٨.

٦ راجع: العلم والفرضية...الفصل السادس، ص٢٠١ من الترجمة العربية.

ولما كان مفهوم التقدم كان هو الشغل الشاغل لفلسفة العلم المعاصرة التى تمحورت حول نظرية الميثودولوجيا أدرك لودان أهمية دراسة تاريخ الميثودولوجيا كما كانت وكما ينبغي أن تكون، ورأى أنها ستظل عرضة لسوء الفهم ما لم تستند إلى المعالجة التاريخية الحقيقية .

كما أكد لودان أن تطور فلسفة العلم وعلى الأخص نظرية الميثودولوجيا ؛ لا يتم بمعزل عن تطور العلم ذاته عبر مسار تطوره التاريخي، كما أن نظرية المعرفة ذاتها تتأثر بصورة العلم في أي عصر من العصور.

ويعتبر لاري لودان امتداداً للمبرزين من فلاسفة العلم المعاصرين أمثال بوبر وكون ولاكاتوش، وهو قد وجّه العديد من الانتقادات إليهم جميعاً. لذلك كان تأكيده على ضرورة إعادة التفكير في بعض الآراء التقليدية السائدة عن طبيعة فلسفة العلم.

وتظهر انتقادات لودان حين يعطينا فكرة عما كانت عليه فلسفة العلم من قبل، وعما يمكن أن تكون عليه مرة أخرى، مستخدما التاريخ كأداة للاستكشاف والبحث، موضحا بعض الآراء الشائعة، والتي يراها غير صائبة ، الأمر الذي جعله يصف الميثودولوجيا المعاصرة بضيق الأفق .

ويعد كتاب لودان ،الذي بين أيدينا، من أهم كتبه، حيث يتجاوز فيه الاتجاهات السائدة في فلسفة العلم المعاصرة، يتجاوز الاتجاه الوضعي ، والاتجاه النسبوي، ويقدم أدلته التي يوضح من خلالها انتقاداته لكل منهما. فهو بالفعل إسهام حقيقي في فلسفة العلم، يعلمنا كيف أن الفكر الفلسفي الأصيل ينتقل من النقد إلى الإبداع.

لذلك من دوافع اهتمامي بهذا الكتاب؛ عدة عوامل أهمها:

- اهتمام لودان الصريح والمباشر باتجاهات فلسفة العلم المعاصرة على اختلافها واستيعابه لها.
- تحليله الدقيق لجذور كل اتجاه وللنتائج التي توصلوا إليها.
- مقارنته بين الوضعيين وما بعد الوضعيين، موضحاً أوجه التشابه فيما بينهم، محدداً العناصر المشتركة لدى كل منهم. وكيف كانت نسبوية ما بعد الوضعيين مطمورة في تربة الوضعيين.
- النزعة النقدية الصريحة، التي نجدها في ثنايا الكتاب، والتي تتميز بالموضوعية والنزاهة العلمية.

في اعتقادي أن هذا الكتاب هو من أهم كتب لاري لودان، بل من أهم كتب فلسفة العلم ، لأنه جامع لأهم اتجاهات فلسفة العلم المعاصرة، فضلاُ عن تحليله للمشكلات التي نشأت من هذه الاتجاهات، وكيف انبثقت نسبوية ما بعد الوضعية من تربة الوضعية؛ كما أنه يعطينا صورة واضحة للممارسات الفلسفية التي تبين لنا حيوية الفكر الفلسفي في جدليته وتفاعله وفاعليته؛ حين يبدأ من النقد وتصويب الأفكار المغلوطة في جدلية فعالة مثمرة.

في هذا الكتاب نجد نقد لودان للسابقين والمعاصرين ، كما نجد الجديد الذي قدّمه، والنقد الذي وجّه إليه، وردوده على بعض هذه الانتقادات. وهكذا تدور حركة الفكر الفلسفي للأمام معبرة عن نفسها في صورة حيّة، وفي حركة جدلية فعالة منتجة مثمرة، ومن ثم يظهر النقد، ونقد النقد، وهكذا دواليك، لتستمر المسيرة من النقد إلى الإبداع.

لقد ظهر لنا من خلال هذا الكتاب، بل ومن خلال معظم مؤلفات فيلسوف العلم المعاصر لاري لودان، التي سطرها عبر مراحل تطوره الفكري، كيف يتميز بنزعة نقدية صريحة. ولما كان قد مرّ لودان بمراحل تطور ثلاث هي: ١- مرحلة الاهتمام بتاريخ العلم. ٢- مرحلة التقدم ومشكلاته.٣- مرحلة المذهب الطبيعي، و الميتاميثودولوجيا الطبيعية. فإنه في كل مرحلة من هذه المراحل ، يظهر بوضوح موقفه النقدي تجاه السابقين والمعاصرين له من فلاسفة العلم.

<u>في مرحلة فكره الأولى</u>؛ يعد لودان من الفلاسفة المعاصرين الذين اهتموا بتاريخ العلم وتاريخ فلسفة العلم؛ كما أنه يعي تماما أن العديد من الفلاسفة من بينهم هيوال وكون ولاكاتوش وفايرآبند وهانسن وتولمِن ومكملين وغيرهم قد ناقشوا مسألة العلاقة بين تاريخ العلم وفلسفة العلم. لكن ذلك لم يمنعه من أن يوجه إليهم سهام نقده؟ كما توجه بانتقاداته لمعظم الذين كتبوا عن تاريخ العلم،ووقعوا في العديد من الأخطاء، بل وصف بعض هذه الكتابات بالكارثية! وذلك لعدة أسباب، أهمها ،باختصار؛ أنهم لم يتبينوا نوع العلاقة الصحيحة بين العلم وتاريخه وفلسفته. فما يميز لودان عن سابقيه أنه يؤكد على وجود منطقة مشتركة جامعة للعلم وتاريخه وفلسفته؛ وهي تاريخ نظريات المنهج العلمي، وهو بذلك يرفض الثنائية القائمة بالفعل بين تاريخ العلم وفلسفة العلم لدى العديد من الفلاسفة، لذلك يؤكد أنه من

الصعب فهم أي من تاريخ العلم أو فلسفة العلم بدون تناول تطور نظريات المنهج . فهو يعتبر تاريخ المنهج العلمي أهم جسر يربط بين تاريخ العلم وفلسفة العلم [٧].

وفي المرحلة الثانية ؛مرحلة التقدم ومشكلاته[٨]. يقدم لودان نظريته عن "كيفية نمو العلم وتقدمه"، فيقدم نموذجاً للتقدم العلمي، يظهر فيه بوضوح موقفه النقدي تجاه النماذج التي يقدمها كل من بوبر وكون ولاكاتوش. سواء من حيث ما يتعلق بهدف العلم ، أو طبيعة المشكلات ،أو طبيعة النظريات المركبة (البرادايم) عند كون ، برامج البحث عند لاكاتوش، كما يقدم رؤية نقدية عن الثورات العلمية، ينتقد لودان نظرية النماذج العلمية عند كون ، كما ينتقد نظرية برامج البحث عند لاكاتوش، كما يعارض لودان الفكرة النسبوية عن التغير العلمي، ويرفض دعوى التقدم التراكمي.

أما مرحلته الفكرية الثالثة، يعبر عنها كتابه:"تجاوز الوضعية والنسبوية" Beyond Positivism and Relativism، يضع لودان في هذا الكتاب حصاد السنين الحافل بخبرته الفلسفية ، واختلافاته الفكرية مع السابقين والمعاصرين له من أساتذته وزملائه الفلاسفة المبرزين. يصف لودان كيف قضى العقد الأول من مهنته الفلسفية ساعياً لتجنب العديد من معتقدات الوضعيين، كما يصف التغيرات الكبيرة التي حدثت في مناخ الفكر الفلسفي العام في منتصف سبعينيات القرن العشرين، كنتيجة للأفكار المؤثرة لأستاذه توماس كون Thomas Kuhn من ناحية ، ونتيجة لأفكار زميله بول فايرآبند Paul Feyerabend أحياناً أخرى ،وكما يقول: فقد أصبحت الوضعية بالية في العديد من الدوائر، ليحلّ محلها العديد من أشكال النسبوية الإبستمولوجية والمنهجية. ولقد وجدت أن هذه التطورات الأخيرة أكثر عواراً من الهيمنة الوضعية السابقة[٩].

لذلك نجده ،في هذا الكتاب، يعبر عن ذروة موقفه النقدي الواضح، حين يتصدى بالتحليل والتفنيد والنقد لأكثر اتجاهات فلسفة العلم المعاصرة وأكثر الإبستمولوجيات المؤثرة في العلم وهي الوضعية ونسبوية ما بعد الوضعية. أراد لودان أن يثبت من خلال انتقاداته لكل اتجاه أنها لا تستنفد الخيارات الإبستمولوجية المتاحة أمام الباحثين الذين يحاولون فهم كيف يعمل العلم. وعنوان الكتاب نفسه يؤكد مبدأ التواصل والتجاوز، أي الانتقال من النقد إلى الإبداع.

---

٧. راجع في ذلك تفصيلاً: فاطمة إسماعيل: دراسة عن : العلاقة بين العلم وتاريخه وفلسفته عند لاري لودان، مرفقة مع ترجمة كتاب لودان:العلم والفرضية.صفحات٩-٧٧.

٨ راجع: لاري لودان، التقدم ومشكلاته، نحو نظرية عن النمو العلمي، ترجمة فاطمة إسماعيل، الناشر المركز القومي للترجمة، العدد(٢٤١١)،٢٠١٦.

٩ Beyond Positivism and Relativism

والفرضية التي يبدأ منها لودان ويحاول التدليل على صحتها في كل فصول كتابه: "تجاوز الوضعية والنسبوية"، أن جذور النزعة النسبوية عند ما بعد الوضعيين مطمورة بعمق في تربة الوضعيين.

فيؤكد أن"خطايا الآباء"، أي الأخطاء التي وقع فيها الآباء يدفع ثمنها الأبناء، إن صح التعبير، فيشير إلى العديد من المشكلات الرئيسة في فلسفة العلم، والتي كانت نتيجة للعديد من أخطاء أفكار الوضعيين، منها على سبيل المثال: إعادة الصياغة الأكسيومية للنظريات العلمية، وما يتعلق ببنية التفسير العلمي، وغيرها من المشكلات . يقارن لودان بين الوضعيين والنسبويين ويرى أن النسبويّين المعاصرين، مقارنةً بالوضعيين، قد اتسموا بالغموض و الحجة غير المتقنة. (لقد افتخر فايرآبند Feyerabend بتضارباته؛ وكون Kuhn الذي كان بالكاد أكثر اتساقاً من فايرآبند، نادراً ما كان يعترف بذلك). لذا يصرح لودان بأنه وجد نفسه، في فترة الثمانينيات، في عراك متكرر مع ما أطلق عليهم "المهووسين الجدد"(١٠).

وينفي لودان، ما وصفه البعض به، أنه يقع في منطقة وسط بين الوضعيين والنسبويين، بل يؤكد أنه يقدم تفسيراً للعلم من خلال تصحيح هذين الموقفين، وتجاوزهما معاً. فيقوم بإبطال آراء الوضعية و ما بعد الوضعية على حدّ سواء. ليثبت أن ما جعل مصير ما بعد الوضعية محكوماً عليه بالفشل في تاريخ الإبستيمولوجيا هو أنها حملت لنتيجتها الطبيعية العديد من الاعتقادات الأصلية للوضعية نفسها، تلك الاعتقادات التي يرى لودان أنها باطلة ذاتياً. من هنا يؤكد أن المرض الذي كان سبب الوهن تماما لما بعد الوضعية كان مستتراً في الوضعية المنطقية واستمر في إعاقة معظم من يفخرون بأنهم لم يكن لهم أي تعامل مع "غموض ما بعد الوضعية". ويثبت أن ناقوس الموت الذي يدق بالنسبة للوضعية يدق أيضاً بالنسبة لما بعد الوضعية.

وسيجد القارئ في هذا الكتاب–تجاوز الوضعية والنسبوية– كيف حلّ لودان العديد من مشكلات العلم المعاصرة. مثل :مشكلة اللامقايسة. يعطي لودان أمثلة توضح أن تقييم المزايا النسبية للنظريات العلمية المختلفة لا يعتمد بالضرورة على وجود إجراءات ترجمة على مستوى الموضوع بين النظريات التي يتم مقارنتها.

لم يقتصر نقد لودان على كون وفايرآبند فحسب بل امتد ليشمل معظم فلاسفة العلم المعاصرين مثل كواين وجودمان، وديفيدسون وغيرهم مما يمثلون ما بعد الوضعيين.

---

[10] المصدر السابق، الفصل الأول.

إن لودان يقلب دعوى كون وديفيدسون رأساً على عقب. ويرى أنه لاينبغي انتزاع تفرد الخطط التصورية، أو النماذج الإرشادية وتمييزها على ضوء لاقابلية الترجمة، كما فعل كون وفايرآبند وديفيدسون، بل يجب أن تعتمد على أحكام تتعلق بالتعهدات القيّمية والأنطولوجية والمنهجية.

ويتصدى لودان للأمور المنهجية، فيثبت أن الوضعيين كانوا ذاتيين بشكل جذري بشأن الميثودولوجيا والإبستيمولوجيا ، وساهموا في خلق بيئة فكرية مهدت لكون وفييرآبند ، إن نسبوية كون فيما يتعلق بالأمور المنهجية تنبثق مباشرة من قبوله للتمييز الحاد بين الواقع والقيمة وهو تمييز وضعي بامتياز.

من أجل تجنب النزعة النسبوية فيما يتعلق بالأهداف العلمية والمعايير وتجنب الاتجاه الاصطلاحي فيما يتعلق بالمناهج التي تمثل كلاً من الفكر الوضعي وما بعد الوضعي؛ يهتم لودان بأوراق اعتماد الميثودولوجيا والابستيمولوجيا ، يثبت أن الاختيار بين المناهج العلمية ليس مجرد مسألة حدس أو مواضعة. ويقدم منظوراً طبيعياً للميثيودولوجيا يختلف فيه عن ريشنباخ وبوبر ولاكاتوش وكون ، فيقدم منظوراً للقواعد المنهجية يتعامل مع العلاقة بين الغايات المعرفية والوسائل ، ليؤكد بذلك أنها مسألة إمبيريقية وليست مسألة مواضعة. فيقدم ميتا ميثودولوجيا وأكسيولوجيا (نظرية في القيمة) متسقة للعلم. كما يناقش ما يُطلق عليها حجة قصور التحديد(أو نقص الإثبات) underdeterminaion. التي نجدها عند كل من "كواين" و"كون" و"لاكاتوش" و"فايرآبند" و"رورتي" و"جودمان" وتقريباً عند كل أتباع النسبوية جميعهم. وباختصار تؤكد دعوى قصور التحديد الجذري بأنه يمكن توفيق أية نظرية مع أي دليل. يفند لودان دعاوى قصور التحديد وما أدت إليه من تقويض أساس الميثودولوجيا العلمية، ويرفض النقد النسبوي للأبستمولوجيا والميثودلوجيا، ويرفض ما يستند عليه من حجج مستمدة من قصور التحديد. كما يرفض التكافؤ التجريبي والاستدلال منه على قصور التحديد ، ويقدم العديد من المشكلات التي تتعلق بالتكافؤ التجريبي وذلك دفاعاً عن آفاق الابستيمولوجيا، ويعتبر لودان فكرة التكافؤ التجريبي فكرة مدمرة على امتداد فلسفة القرن العشرين؛ لأنها تحفز العديد من أشكال النسبوية الأنطولوجية والإبستيمولوجية. كما يناقش لودان موضوع ترسيم الحدود بين العلم وغير العلم ليثبت فشل هذا المشروع لأنه قام على سلسلة كاملة من الالتباسات التي حكمت عليه بالإخفاق منذ البداية. كما تتجلى النزعة النقدية عند لودان في الردّ على نقد كون وفييرآبند النسبوي للميثودولوجيا. فينتقد العديد من الحجج التي وُجّهت ضد إمكانية قيام الميثودولوجيا بوصفها مشروعاً معيارياً ووصفياً. وجاء تركيزه على أكثر النقاد

المؤثرين في المفاهيم الكلاسيكية للميثودولوجيا العلمية، وتحديداً هما، توماس كون، و بول فايرآبند. ويثبت لودان أن حججهم الخاصة بشأن عدم جدوى اللجوء إلى المناهج و المقاييس العلمية لا تصمد أمام التحليل المدعوم.

ونترك القارئ ليحكم بنفسه أي حجج تصمد أمام التحليل.

لذلك رأيت أن أقدم للقارئ العربي وللمكتبة العربية، كتاب من أهم كتب لودان، بل أيضاً من أهم كتب فلسفة العلم المعاصرة.

والله الموفق.

أ.د. فاطمة إسماعيل
أستاذ الفلسفة، جامعة عين شمس، مصر